الأربعاء 30 ديسمبر/ كانون الأول 2020 م 15 جمادى الأول 1442 هـ □ العدد 2312 السنة السابعة
Wednesday 30 December 2020

العربي الجديد

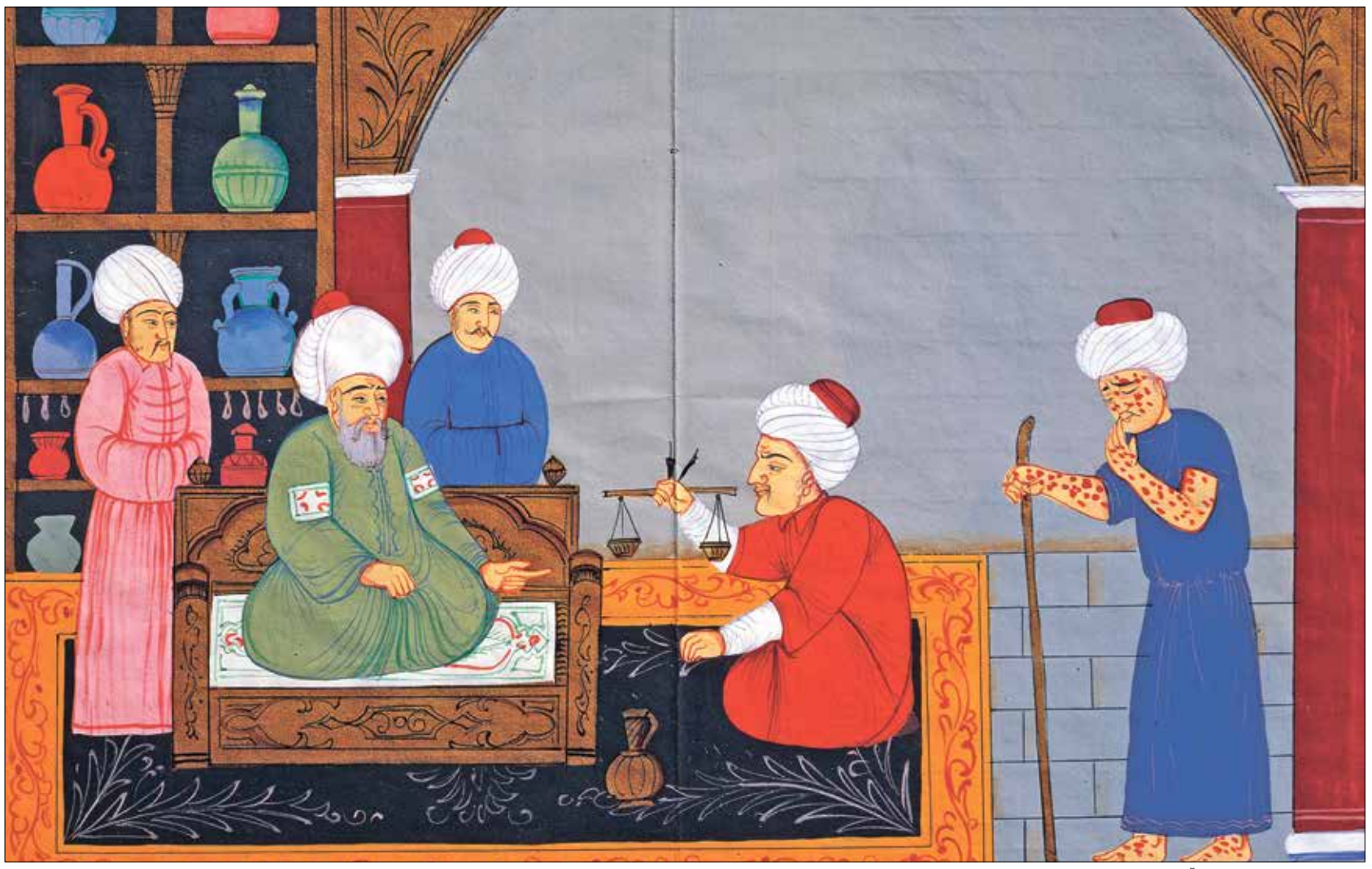

أدرجت الـ«يونيسكو»، أخيراً، المنمنمات العثمانية ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي غير المادي، باعتبارها إرثاً مشتركاً للإنسانية. لهذه المنمنمات تاريخ فني طويل بدأ قبل قرون طويلة

إحدى المنمنمات التي تصوّر تحضير الدواء في القرن الـ17 (Getty)

المنمنمات العثمانية

الرحلة الطويلة نحو قائمة الـ«يونيسكو»

إسطنبول ـ **ياسر غريب**

استجابت الـ«يونيسكو» للطلب التركي بإدراج المنمنمات العثمانية ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي غير المادي، واعتبارها إرثاً مشتركاً للإنسانية. القرار الذي صدر في 17 ديسمبر/ كانون الأول 2020 اشتمل أيضاً على لعبة عثمانية تقليدية تسمى «المنقلة».

والمنمنمات مصطلح فني يشير إلى لوحات فنية صغيرة الحجم مرسومة بدقة تستعمل عادة في تزيين الكتب ذات الموضوعات التاريخية أو الأدبية أو العلمية، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية Miniare. استخدمها العثمانيون بشكل تقليدي لتسجيل التاريخ وتوثيقه ورصد العادات والتقاليد المختلفة في الملبس والمأكل وجوانب الحياة المتنوعة. وزاد من تألق المنمنمات العثمانية تفاعلها مع الثقافتَين الفارسية والبيزنطية.

أصل هذا الفن يعود إلى زمن الإيغور في منطقة توربان بوسط آسيا في منتصف القرن الثامن الميلادي. ثم ورثه السلاجقة الأتراك وطوروه بعد تفاعلهم مع الثقافة الفارسية، وصولاً إلى الفترة العثمانية.

في عهد السلطان محمد الفاتح (1481.1432) برز الاهتمام بالمنمنمات من خلال إنشاء ورشة الرسم الرومية في قصر توب كابي في إسطنبول، من أجل صناعة الكتب الوثائقية والتاريخية وما يخص السلطان وحاشيته. وفي عهد بايزيد الثاني (1481 ـ 1512) أسست ورشة أخرى للرسوم هي مدرسة الرسوم الفارسية في قصر توب كابي أيضاً، وكانت مكونة من الرسامين الذين تم استدعاؤهم من إيران وتخصصت في الرسومات الأدبية والشعر مثل الشاهنامه وقصة ليلى والمجنون وغيرها.

ومع قدوم السلطان سليم الأول (1512-1520) ظهر المطرقجي نصوح وهو رسام ابتكر نوعًا جديدًا من المنمنمات يسمى (الرسم الطبوغرافي)، فقام برسم المدن والموانئ والقلاع دون أي أشكال بشرية، كما أنشأ مجموعة مناظر ذات أبعاد مختلفة. بينما بدأ العصر الذهبي للمنمنمات مع حكم سليمان القانوني (1520ـ 1566) ثم سليم الثاني (1566ـ 1574) وصولاً إلى مراد الثالث (1574ـ 1595)، فظهر آنذاك أسلوب المنمنمات الكلاسيكي. ومن أهم الأعمال الفنية المتكاملة في تلك الفترة، مجموعة مجلدات (سيرة النبي) التي أخذت فكرة الرسومات من أحداث كتاب السيرة النبوية لمؤلفه مصطفى الضرير. تقع المجموعة في ستة مجلدات، رسمت بها حوالي 800 منمنمة، وقصد الرسامون عدم إظهار وجه النبي وكبار الصحابة في الرسومات. من تلك المنمنمات ما يصور النبي في غار حراء وهو يتسلم خبر النبوة من جبريل، وصورة لمعجزة نبع الماء الذي يفيض من بين أصابع النبي، وصورة له يزوج فاطمة من علي.

أصول الكتاب موجودة في ثلاث مكتبات عالمية؛ المجلد الأول والثاني والسادس في متحف (توب كابي)، والرابع في مكتبة (تشيستر بيتي) في دبلن في أيرلندا، والمجلد الثالث والأخير يقع ضمن مجموعة (سبنسر) في مكتبة نيويورك العامة، والمجلد الخامس مفقود. ولا يعرف تحديدا اسم الفنان أو الفنانين الذين قاموا بهذا العمل، والأرجح أن الأمر لا يخرج عن مشاهير الفنانين آنذاك، وهم نقّاش عثمان، وعلي جلبي، وملا قاسم، وحسن باشا، ولطفي عبد الله.

مع حلول عهد أحمد الأول (1603ـ 1617) بدأ يتردد النظر إلى المنمنمات بين الفني والوظيفي. وكانت المنمنمات ذات الصفحة الواحدة التي تُجمع في ألبومات شائعة، واشتهر رسم المنمنمات بين مواطني إسطنبول. وظهر من يسمون (رسامي البازار) الذين يفترشون أسواق إسطنبول ويقومون بالرسم بناءً على طلب المواطنين. ولكن في عهد أحمد الثالث (1703-1730) نشأ نوع ثقافي جديد معروف في التاريخ العثماني باسم فترة توليب، أو (الباروك العثماني) المتأثر بالباروك الفرنسي. ويمكن الوقوف على هذا التأثر في مجال المنمنمات من خلال الاطلاع على كتاب الفنان عبد الجليل ليفني الذي يحكي قصة مهرجان كبير أقيم لطقوس ختان أحد أبناء السلطان أحمد الثالث، وشارك فيه الحرفيون والفرق المسرحية والمهرجون والموسيقيون وراقصو الأرجوحة والمواطنون. حيث يظهر تأثر أسلوب ليفني بالرسم الغربي، فكانت منمنمات الكتاب مختلفة جدا عن المنمنمات السابقة.

بعد ذلك، استمر تغريب الثقافة العثمانية، ومع ظهور المطبعة والتصوير الفوتوغرافي، أخذت المنمنمات تفقد مكانتها الفنية والوظيفية في الحياة التركية. إلى أن اعتبرت في القرن العشرين فناً زخرفياً، إلى جانب فنون الكتاب العثمانية الأخرى التي تدرس في قسم الفنون الزخرفية التركية الذي افتتح سنة 1936 في كلية الفنون الجميلة في إسطنبول.

باختصار

المنمنمات مصطلح فني يشير إلى لوحات فنية صغيرة الحجم مرسومة بدقة تستعمل عادة في تزيين الكتب ذات الموضوعات التاريخية أو الأدبية أو العلمية

أصل هذا الفن يعود إلى زمن الإيغور في منطقة توربان بوسط آسيا في منتصف القرن الثامن الميلادي

اعتبرت في القرن العشرين فناً زخرفياً، إلى جانب فنون الكتاب العثمانية الأخرى التي تدرس في قسم الفنون الزخرفية التركية الذي افتتح سنة 1936

وأخيراً

نبَّاش القبور

سما حسن

يجب ألا يلقى هذا التصنيف لدينا قبولًا، أن مهنة نبَّاش القبور قد صُنِّفت واحدةً ضمن خمس من أهمِّ المهن المنقرضة، في النصف الأخير من القرن المنصرم. ولأن السينما والدراما التلفزيونية والروايات قد أولت اهتمامًا، وأفردت مكانًا لهذا العالم الغريب المُقبِض؛ فلا يمكن أن تصدّق أن هذه المهنة قد تنتهي، فالشر في العالم يتسع، والعقول التي تفكر باستغلال كلِّ كارثةٍ لا تزال تعمل، وتشحذ كلَّ إمكاناتها؛ لتفعل ذلك. وقد ورد خبر صغير، قبل مدَّة، ليست قصيرة، عن عامل نظافة، سرق قرطا ذهبيّا صغيرا، من أذني سيِّدة مسنَّة توفيِّت بسبب إصابتها بفيروس كورونا، في أحد المستشفيات. وقد تداعى إلى خاطري سرقة القبور، ونبشها، حين وصلتُ إلى هذا الخبر، فالسارق لا يبتعد كثيرًا عن نبَّاش القبور، فهو قد انتهك حُرمة الميت، وقد جُبلنا على تقديس الأمور المبهمة، فبعد أن يصبح الجسد الخالي من الروح، داخل القبر، يُعَدُّ من الأمور المبهمة التي تُحاط بهالةٍ من القُدسية، وأصبح متعارفًا لدى الجميع أن المسَّ بجثَّة إنسانٍ غادرته الحياة يشبه المسَّ بها حيًّا، بل إن ذلك أشدُّ ضراوة. ولذلك عمد الأعداء إلى تحطيم شواهد القبور، ونبشها، والتمثيل بجثث أصحابها، وبعثرة عظامهم، على سبيل الانتقام من الأحياء، والتقليل من شأنهم.

وغالبًا ما تكون بداية أيِّ غزو لمنطقة آمنة العدوان على مقابر الموتى، وقد فعل العبَّاسيون ذلك، حين نبشوا قبور خصومهم الأمويين؛ بغرض الانتقام منهم، ومن جرائمهم بحقِّ الهاشميِّين؛ ما يجعل نبش القبور يحمل طابعًا سياسيًّا أيديولوجيًّا. ولكن الأديان الثلاثة السماوية قد حرَّمته، وانتهجه تنظيم داعش، حين قام بتسوية القبور بالأرض، ونبشها. وفي بعض الأحيان، تبتعد عادة نبش القبور عن هدف الانتقام؛ لكي تبقى في وظيفتها الأصيلة والعتيدة، وهي سرقة متعلِّقات الموتى، وقد كانت هذه المهنة رائجة، في عصور مضت، وحيث ظلَّت عادة دفن الموتى مع متعلِّقاتهم الثمينة، فيما حرَّم الإسلام ذلك، بل حرص على تجريد الميِّت من زينة الدنيا، والاكتفاء بلفِّه بقماش أبيض، يُعرَف بالكفن، وأصرَّ المثل الشعبي على أن هذا الكفن ليس له جيوب؛ دلالةً على أن الإنسان يخرج من الدنيا خالي الوفاض. نعود إلى حادثة سرقة القرط الذهبي من أذني سيدة متوفاة، وعلينا أن نتخيّل ألم أهلها، حين علموا بالحادثة، خصوصا أن المتوفّين بسبب فيروس كورونا لا يُسلَّمون لأهاليهم لإجراء مراسم الدفن، وتبقى الحسرة في قلوبهم؛ بسبب حرمانهم من إلقاء نظرة الوداع عليهم. وبقدر الأسى والحزن والألم، هناك من ينتهز ذلك كلَّه، ويفكِّر بأن ينتهك حرمة ميِّت، ويسرق شيئًا من متعلقاته، مهما كان بخسًا، بل إن أحد نبّاشي القبور قال في اعترافاته، إنه كان يحوم في القرية، حول البيوت التي يكون فيها مريضٌ منتظِرًا لحظة الإعلان عن وفاته؛ لكي يتتبع الجنازة، وينتظر أن يصبح وحيدًا في قبره؛ فيسرق، مبتهجًا بغنيمته، قماش الكفن، وما يجده من حُلِيٍّ، وحتى أسنان تمَّ تركيبها من الذهب والفضة، في حين يكون أهل الفقيد في حزنٍ مقيم. وهكذا، فلكلٍّ مصيبة من يستغلُّها لمصلحته، ولعل أسوأ ما في الأمر أن بعض القبور قد تتحوَّل مزارات دينية، ويجد فيها العامَّة والبسطاء واسطة للتقرُّب إلى الله. وكلما أوغلت الشعوب في فقرها وجدناها تقدِّس مثل هذه المقامات والأضرحة، بل يحمل بعضها أسماء، لا تمتُّ بصلةٍ لأصحابها، مثل مقام النبي موسى قرب أريحا، حيث يتبادر إلى الذهن أن النبيَّ نفسه قد دفن فيه. وقد جرى تدنيسه، قبل أيام، بحفل ماجن. والحقيقة أن صلاح الدين الأيوبي قد أقامه لأسبابٍ سياسيةٍ عسكرية بحتة، وليس تقرُّبًا، وعبادة. ويبدو أن الحديث عن القبور والمدافن، مع نهاية العام، ما هو إلا حصاد ما مرَّ بنا من وجعٍ لفقْدِ الأحبَّة، فلم نهنأ بتهانئ ومناسباتٍ سعيدة؛ بسبب تفشِّي وباء فيروس كورونا، خلال عامٍ مضى، وصرنا بلا تخطيط، نتحدَّث بلا مللٍ عن الموت والمدافن، كما هذا المقال.

> الحديث عن القبور والمدافن، مع نهاية العام، حصاد ما مرَّ بنا من وجعٍ لفقدِ الأحبَّة، فلم نهنأ بتهانئ ومناسباتٍ سعيدة

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** □ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**